

أمثال القرآن

[371] الظمأ يعني العطش، والظمآن هو العطشان، والسراب يجذب العطشان نحوه؛ باعتبار حاجته الملحة للماء. (حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا). الظمآن بعد ما يرى السراب، يتحرك باتجاهه، وعندما يصل إليه لا يجد ماءً، فينظر إلى حيث كان، فيرى سراياً آخر، فيتجه نحوه كذلك، وهذه العملية تستمر هكذا، ممّا يؤدي إلى ازدياد عطشه. هذا هو شأن الكفار يوم القيامة، فهم يبحثون عن أعمالهم الحسنة التي أدوها في الدنيا لعلّها تنجيهم، لكنهم لا يحصلون على شيء فيرجعون خلو اليدين؛ لأن أعمالهم كانت بمثابة السراب الذي يبدو ماءً وما هو بماء. (فَوَجَدَا عَبْدًا عِنْدَهُ فَوْقَ وَطْنِهِ حَسَابًا). يتعطش الكافر يوم القيامة إلى الأعمال الصالحة، فيرى من بعيد تلاً من أعماله فيتجه نحوها، وعندما يقترب منها يجدها لا شيء بل يجد أنّ (أي يجد عظمتها أو عذابه) يهتمّ بحسابه ويريه جزاء أعماله القبيحة. (وَالسَّارِعُ الْحَسَابِ). لا يتوانى في حساب الكفار، بل يُسرع في حساباتهم. وحساب يوم القيامة يختلف عن الحسابات العادية التي نمارسها يومياً، فهو حساب معقّد ودقيق ويستدعي وقتاً طويلاً، فمن الصعب جداً أن تُراجع أعمال الإنسان كلها منذ بداية خلقه، سواء التي نفذها بيده أو برجله أو بلسانه أو بقلبه أو بعينه أو أذنه. رغم ذلك جاء في رواية: "إنّ الله تعالى يُحاسب الخلائق كلّهم في مقدار لمح البصر" (1)، وهذا هو معنى (وَالسَّارِعُ الْحَسَابِ). لكن يا ترى كيف يمكن هذا؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي إلقاء نظرة على بعض منجزات البشر. يوضع في الطائرة صندوق يُدعى الصندوق الأسود، وهو في الحقيقة نظام مراقبة يشرف 1. مجمع البيان 1: 298.